

مفدي زكرياء والشعر الثوري الشعبي
نشيد جيش التحرير الجزائري أنموذجاً

أ.د. نصيرة شافع بلعيد *

جامعة تلمسان

belaidchafa@yahoo.fr

تاريخ النشر	تاريخ القبول	تاريخ الإرسال
2020-07-30	2020-06-27	2020-04-05



كثيرون يعرفون مفدي زكريا كشاعر ثوري في الأدب العربي الرسمي، لكن قلة من يعرفونه كشاعر ثوري شعبي، وهذا ما سأحاول إلقاء الضوء عليه من خلال دراسة قصيدته "نشيد جيش التحرير الجزائري" المكتوبة باللهجة العامية.

الكلمات المفتاحية : مفدي – شعر – ثوري – شعبي – نشيد



Many know Moufidi Zakaria as a revolutionary poet in the classical Arabic language, but few know him as a revolutionary poet in the slang, And this is what I will try to shed light on it through the study of his poem "the anthem of the Liberation Army" written in colloquial Arabic.

Key words: Moufidi – poetry- Popular- revolutionary- anthem

* أ.د. نصيرة شافع بلعيد belaidchafa@yahoo.fr

تمهيد:

يجمع الدارسون على أنّ هناك علاقة تأثير وتأثر بين ثورة التحرير الجزائرية وشاعرها العملاق مفدي زكريا، فالثورة ألهمت شاعرها، والشاعر خلّد ثورته في جلّ قصائده، إذ لا نلبث أن نذكر أحدهما حتى نتذكّر الآخر، إلّا أنّ كثيرين هم من يعرفون مفدي زكريا شاعراً ثورياً بالفصحى ولكن قليلون من يعرفونه شاعراً للثورة بالعامية، وهذا ما سأحاول إلقاء الضوء عليه من خلال دراسة قصيدته الحماسية الرائعة: "جيش التحرير الوطني".

1- تعريف الشاعر:

ولد الشاعر "مفدي زكريا" عام 1908 في قرية بني يزقن الواقعة في واحة "بني ميزاب" في الجنوب الجزائري، وفيها بدأ قراءة القرآن في الكتاتيب وتلقى علومه الابتدائية ثم انتقل إلى عنابة لمتابعة دراسته، وأرسله والده بعد ذلك إلى تونس ضمن البعثة الميزابية فمكث عامين في مدرسة السلام القرآنية، وانتقل على إثرها إلى "المدرسة الخلدونية" لدراسة العلوم. أكمل تعليمه في (جامع الزيتونة)، ثم عاد إلى الجزائر حيث النضال الحقيقي، فانضم إلى جبهة التحرير الوطني وكان التحامه بالجبهة والجهاد مبلوراً في شعره الذي أثار حقد الاستعمار الفرنسي عليه. سجن الشاعر مفدي زكريا خمس مرات كما جاء في ديوان (اللهب المقدس) إلى أن هرب من السجن في عام 1959 ملتحقاً بصفوف (جبهة التحرير الوطني) بالخارج متقللاً بين تونس والمغرب، وعندما نالت الجزائر استقلالها في الخامس من شهر جويلية عام 1962م. اتخذ الشاعر مفدي زكريا من تونس مستقراً له حتى وافته المنية إثر سكتة قلبية في شهر أوت عام 1977 ونقل جثمانه الطاهر إلى الجزائر ودفن في وادي ميزاب. خلف الشاعر إرثاً ثقافياً وحضارياً وقيماً ونضالياً وفكرياً وأدبياً متميزاً موزعاً بين المطبوع والمخطوط والمنشور في الصحف والمجلات، ففي مجال الشعر صدر له ديوان "اللهب المقدس" بين عامي 1961 - 1983 وديوان "تحت ظلال الزيتون" عام 1965 وملحمة "إلياذة الجزائر" في طبعات عدة نشرتها مجلة الأصالة الجزائرية. أما المخطوطات فمنها "أهازيج الزحف المقدس" فكان قد كتبها بلغة الشعب و "انطلاقة" التي تمثل المعركة السياسية في الجزائر من عام 1945 إلى عام 1954 و "الخافق المعذب" و "محاولات طفولة". أما في مجالات النشر فقد صدر له بمشاركة الأديب التونسي الهادي العبيدي كتابان هما "الأدب العربي في الجزائر"، ويقع في أربعة أجزاء و "أنتم الناس أيها الشعراء" في النقد التحليلي وبمشاركة الأديب التونسي "الحبيب شيبوب" له كتاب بعنوان

"صلة الرحم الفكرية بين أقطار المغرب العربي الكبير" وبمشاركة المؤرخ التونسي محمد صالح المهدي. صدر له كتابان هما "تاريخ الصحافة العربية في الجزائر" وأقطاب الفكر بالمغرب على الصعيد العالمي .

2- القصيدة:

مكث مفدي زكريا ردىاً طويلاً من الزمن في غياهب السجون والزنايات بعد أن اختار طريق النضال والثورة والانضمام إلى "جبهة التحرير الوطني"، إنه أدخل السجن خمس مرات وترك في كل زنزانة من سجن بربروس والبرواقية أثراً لا يمحي بقصيدة خلدت ذكره وقصة كفاحه النبيل ضد المستعمر الفرنسي حيث نظم في سجن بربروس عدة قصائد هي : " الذبيح الصاعد - زنزانة العذاب - وتعطلت لغة الكلام - فاشهدوا - نشيد الشهداء - بنت الجزائر - يا جمال - النشيد الرسمي للاتحاد العام للشاغليين، "أما في سجن البرواقية فقد نظم عدة قصائد أيضاً منها : "وقال الله - اقرأ كتابك و "نشيد جيش التحرير" موضوع دراستنا وهو النشيد الذي كان يردده جنود جيش التحرير الجزائري في ساحات القتال والذي يقول فيه:

هذى دمانا الغالية دفاقة

وعلى الحبال علامنا خافقة

وللجهاد أرواحنا سباقة

جيش التحرير احنا..... ماناش (فلاقة)¹

يا فرسنا ... لا تفيدك اليوم جيوشك

ولا تفكك من ايدينا جحوشك

يا فرنسا في طغاوتك وفشوشك

يا ظلمة امسكناك من الحناقة

جيش التحرير احنا... ما ناش (فلاقة)

الشعب اليوم... راهو رجع له صوابه

ويحب يصفى معاك اليوم حسابه
الكذب حبله قصيف² يا كذابه
والخاين ما تواتيش معاه ارفاقه
جيش التحرير احنا... ما ناش (فلاقة)
العالم كله قضى على استعمار
غير الجزائر تشكي صهد³ ناره
الحر ما يرضى يكون غير في داره
والغير يسلب ثروته وارزاقه
جيش التحرير احنا... ما ناش (فلاقة)
على استقلالنا يا فرنسا ثرنا
وحتى شي في الدنيا ما يرجعنا
واللي جلها... يغد... يسال عنا
(فنتس) و (قم الطوب)⁴ و (عين الناقة)⁵
جيش التحرير احنا... ما ناش (فلاقة)
الصدر ضاق... والرصاص تكلم
صوت الجزائر م الجبال يدمدم
الله أكبر... أنا عربي مسلم
الروح هبت للفدا مشتاقه
جيش التحرير احنا... ما ناش (فلاقة)
صوت الجزائر في الجبال يلالي
ممزوج بالنار.. والدم الغالي
يدعو الشباب للجهاد العالي:

حي على الجهاد... يا رفاقه...

جيش التحرير احنا... ما ناش (فلاقة)

عاهدت شعبي أبدا ما أرجع

أشهد يا ربي... وباعالم إسمع

ويا زمان... رغم أنفك ترجع

حره بلادي ... اعلامها خفاقه

جيش التحرير احنا... ما ناش (فلاقة)

3- دراسة مضمون القصيدة

يدعو الشاعر في هذا النشيد إلى الثورة على الاستعمار الفرنسي وإعلان الجهاد في وجه الظلم والطغيان تحت راية "الله أكبر" ، والنص من الشعر الثوري الحماسي الملحمي الذي يدعو إلى الثورة ويتغنى بالبطولات والأعمال المجيدة والمناقب الوطنية الحميدة ، وهو غرض مشهور في الآداب العالمية القديمة ، فقد توجه الشاعر إلى فرنسا بالتهديد ، فتوعدها بالجهاد والتضحية بالدماء الطاهرة الغالية من أجل الحرية والاستقلال ورفع الراية الوطنية، ويسخر منها لأنه آن الأوان لطردها من الجزائر ، ولن تقيدها جيوشها ولا كذبها ولا مكرها ولا خداعها. وهنا يشير إلى وعودها الكاذبة للجزائريين بالاستقلال بعد مساعدتها في الحرب العالمية وما حدث في 8 ماي 1945م في سطيف وقالة وخرطة، كما يشير إلى رفض قضية الإدماج واستحالة ربط صداقة معها.

وقد تخللت القصيدة لازمة "جيش التحرير احنا... ماناش فلاقة" وهي عبارة عن سطر شعري تكرر ثماني مرّات، عبر من خلالها على موقفه النائر من فرنسا التي كانت تتعت المجاهدين ب"الفلاقة"، وعن اعتزازه بجيش التحرير الوطني البطل.

والشاعر يتغنى بمنهج الثورة في مخاطبة المستعمر، فجاءت أفكاره بسيطة واضحة لا عمق فيها ولا تعقيد، وهي مرتبة ترتيباً منطقياً ومتراصة ترابطاً مكيناً، وهي أفكار صوّرت في إيجاز ولهجة صادقة انفجار الثورة

بنارها الملتهبة في وجه الغاصب الظالم، وإذا كانت أفكار الشاعر تبدو في تعبيرها عن تيار التحرر، والأحداث الوطنية متداولة في العصر الحديث، فإنها من جهة أخرى تبدو متأثرة بالثقافة العربية الإسلامية التي رضع الشاعر لبنها وتشبّع بها منذ الصغر، حيث استعمل كلمة "الجهاد"، "الله أكبر"، "عربي، مسلم"...

فالثورة عنده تتبع من العروبة والإسلام، وتتجاوز نطاق الجزائر لتشمل الوطن العربي برمته. يقول د. نشاوي عن مفدي: "فلسفة الثورة عنده تتبع من الدين والعروبة؛ فلم يفصل بين وطنه والبلاد العربية، وكافح دائماً من أجل لغته وقوميته وإسلامه، فكابد من جرّاء ذلك ألواناً من الآلام"⁶.

عاطفة الشاعر هي عاطفة افتخار واعتزاز بجيش التحرير، وبالعروبة والإسلام، وهي جياشة قوية صادقة لأن الشاعر عاش أحداثها واصطلى بنارها ممّا جعله يوقّق في نقل هذه المعاني إلى المتلقّي بحرارة وفعالية، فكان شعر مفدي خلال ثورة التحرير أشد على جسد فرنسا من الرصاص، لما يحمله من وعي وتحريض على المستعمر، ودعوة للكفاح من أجل استعادة الحرية.

4-دراسة أسلوب القصيدة:

نظم الشعر القصيدة بلغة جزائرية شعبية قريبة من الفصحى ولغته واضحة، رصينة، جَزلة، سليمة من الناحية اللغوية (النحوية والصرفية والإملائية). ويُعزى ذلك أساساً إلى تضلّعه من اللغة العربية، ونجد معجم الثورة حاضراً بقوة في شعر مفدي؛ فهو "شاعر الثورة الجزائرية"، كما أسلفنا القيل، والمعبر عن هُوم شعبه وانشغالاته وتطلعاته أصدق تعبير.

أسلوب النصّ سلس واضح، وعباراته وألفاظه ذات جرس قويّ، شديدة الوقع في الأذن، تناسب غرض النصّ من ذلك: "الرصاص، يدمدم، النار، الجهاد"، فهي توحى بنيران الثورة المحرقة وبقوّة المجاهدين وبأسهم ونزولهم على العدو كالصواعق، وفي "جحوشك، كذابة، خاين" استصغار واستخفاف بفرنسا.

وقد لعبت اللازمة دوراً هاماً في تشكيل بناء القصيدة الداخلي والخارجي، فبعد كلّ أربعة أسطر يعيدها الشاعر ليفصل بين كلّ منها، جاعلاً منها رابطاً بين أجزائها ومشكلاً منها مساحات واسعة وفضاءات تمتدّ داخل النصّ ليعمل تكرار اللازمة على تماسكها ضمن دائرة إيقاعية واحدة وكأنها قالب فنيّ متكامل في نسق شعريّ متناسق، وربما تكون هذه اللازمة هي الفكرة الأساسية للقصيدة والمسيطرة عليها بكوامنها النفسية، كما أنّها ظلّت حاضرة

بقوة بظلالها في مختلف الأسطر الشعرية لتعبّر عن الدلالات التي يرمي إليها الشاعر وما تبثّه من كمون عاطفيّ. إنّ الانفعال النفسي وصدق التجربة الشعرية هو الذي أدّى إلى هذا التكرار الذي هو أقرب إلى سياق لاشعوريّ كثيف يثري الشعور العام المتصاعد.

تراوح أسلوب النصّ بين الخبري والإنشائي ومن الأساليب الإنشائية النداء في قوله "يا فرنسا" وغرضه التهديد والأمر في قوله: "يا عالم اسمع" "حيّ على الجهاد"، وقد استعان الشاعر بالصور البيانية التي توضّح المعنى وتقوّيه كالاستعارة المكنية في قوله: "لا تفكّك من أيدينا جحوشك" و"يا زمان رغم انفك ترجع"... المحسنات البديعية أضفت على الأسلوب نغماً عذبا تأنّس له الأذن منها الجناس الناقص بين "دفاقة وخفاقة" وبين "جوشك وجحوشك"...، لقد وفّر هذا الجناس للقصيدة إيقاعاً غنياً وجرساً متجاوباً أحدث مفدي زكريا من خلاله توازناً صوتياً.

5- قيم النصّ:

يبدو الشاعر من خلال القصيدة عارفاً خدائع الاستعمار، نزاعاً إلى الثورة، مقدّساً الجهاد، مؤمناً بنصر الله للمجاهدين، متشبعاً بالثقافة الإسلامية، بينما تبدو البيئة مستعمرة فرنسية، عانت كثيراً من ألوان المكر والخداع، أخفقت في الكفاح السياسي، فلجأت إلى الكفاح المسلّح. النصّ له قيمة تاريخية وسياسية تتجلّى في الصراع القائم بين الاستعمار والشعوب التواقّة إلى الحرية وفي فشل لغة الساسة واللجوء إلى لغة السلاح، كما تتجلّى القيمة الدينية في تقديس الجهاد والدعوة إليه.

خاتمة:

من يطلع على شعر مفدي زكريا يعرف قيمة النضال الحقيقي وقضايا الشعوب وحققها في تقرير مصيرها ويتجلّى ذلك من خلال شعره الفصيح والعامي الذي يجسّد إيمانه العميق بالثورة الجزائرية إن مفدي زكريا كان مثلاً يحتذى للثوار والشعراء إذ كان بين صفوف الثوار يعمل على شحذ الهمم وإيقاظ الحمية في نفوس الشعب من خلال أناشيده الوطنية والثورية أيام الثورة، وهذا غيض من فيض شاعرنا العظيم مفدي زكريا الذي استحق بجدارة لقب شاعر الثورة الجزائرية.

إِحَالَاتُ الْبَحْثِ

- 1- فَلَاقَةُ : كلمة تطلق في المغرب العربي على المجرمين وقطاع الطرق، والفرنسيون يسمون أبطالنا بالفَلَاقَةُ (les fellaghas)
- 2- قصيف: قصير
- 3- صهد: لهيب
- 4- فم الطوب: بلدية من بلديات ولاية باتنة تابعة إدارياً لدائرة إشمول وهي بلدية غنية بالماء. تقع المدينة على بعد 49 كم جنوب شرق مدينة باتنة و68 كم غرب خنشلة و119 كم شمال غرب مدينة بسكرة.
- 5- عين الناقة: بلدية بدائرة سيدي عقبة ولاية بسكرة الجزائرية.
- قنطس، فم الطوب، عين الناقة : أسماء لساحات قتال دارت فيها الدائرة على جيش العدو ولاذ بالفرار متعثراً في أذيال الهزيمة.
- 6- نسيب نشاوي: مدخل إلى دراسة المدارس الأدبية في الشعر العربي المعاصر، دمشق، ط1، 1980، ص 358.

